نظرة عابرة

في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة

بقلم الأستاذ محمد زاهد الكوثري

وكيل المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية سابقا

1371 – 1296

الطبعة الأولى بالقاهرة

سنة 1362 هـ – 1943 م

الطبعة الثانية بالقاهرة

سنة 1408 هـ – 1987 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الناشر:

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين، و على من تبع سنته و اهتدى به إلى يوم الدين.

و بعد فهذا كتاب (نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة)، للإمام الهمام الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، و قد رد به على مزاعم الشيخ محمود شلتوت، في فتواه بشأن وفاة سيدنا عيسى و رفعِه و نزولِه، التي نشرت في حين صدورها في مجلة (الرسالة)، ثم أدرجها في كتابه المسمى: (الفتاوى).

ننشر هذا الرد بمناسبة عودة النِّحلة القاديانية الضالة، إلى النشاط و البروز في كثير من بلدان أوربا و أمريكا و غيرهما. لتضليل الغُفل القليلي المعرفة.

و كان قد تقدم بالاستفتاء عن مضمون هذه الفتوى بعض الضباط القاديانيين، في جيش الاحتلال الإنكليزي لمصر قبل استقلالها، المسمى: عبد الكريم خان، تقدم بالاستفتاء إلى شيخ الأزهر آنذاك، الشيخ محمد مصطفى المراغي، و تضمن الاستفتاء: (هل عيسى حي أم ميت في نظر القرآن الكريم و السنة المطهرة؟ و ما حكم المسلم الذي ينكر أنه حي؟ و ما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد إلى الدنيا مرة أخرى)، كما سيأتي في أول الفتوى من الشيخ شلتوت.

فأحال الشيخ المراغي هذا الاستفتاء إلى الشيخ محمود شلتوت، المعروف بشذوذ آرائه في كثير من المسائل العلمية الراسخة، فخرجت الفتوى بالصورة التي أثارت العلماء، و استنكرها الناس أشد الاستنكار و رد عليها أكثر من عالم، و كان في طليعة العلماء الكبار الرادين عليها الشيخ محمد زاهد الكوثري، فرد عليها بهذا الكتاب الفذ المتين.

و نظرا إلى أننا ننشر رد العلامة الكوثري هذا، رأينا من المناسب المفيد أن ننشر معه كلام الشيخ شلتوت المردود عليه، منقولا عن كتابه (الفتاوى)، ليقف القارئ على النص المردود عليه من كلام الشيخ شلتوت، فيزداد فهما و إدراكا لكلام الشيخ الكوثري الذي رد به، مع العلم أن رد الشيخ الكوثري، كان على كلام الشيخ شلتوت الذي نشره

في مجلة (الرسالة)، و قد لخصه و شذّبه الشيخ شلتوت في كتابه (الفتاوى)، و بقي في هيكله العام بحمل الشذوذ: المردود عليه في مجلة (الرسالة)، رغم التشذيب و التهذيب!

و رأينا من المفيد جدا أن نصدِّر هذه الطبعة من كتاب الكوثري، بترجمته التي كان قد كتبها الشيخ الإمام محمد أبو زهرة، بعد وفاة الشيخ الكوثري رحمهما الله تعالى، بنحو سنة، لتُعرِّف القراء بسمو مرتبة الشيخ الكوثري في العلم و التحقيق و الإمامة، في نظر كبار العلماء أمثال الشيخ أبي زهرة، فإليك أولا ترجمة الشيخ الإمام الكوثري، ثم يتلوها نص كلام الشيخ شلتوت، ثم تلخيص ما تضمنته فتواه في أسطر قليلة، ثم كتاب الشيخ الكوثري، و من الله تعالى نستمد العون و التوفيق، و الحمد لله رب العالمين.

القاهرة 10 / 11 / 1407

6 / 7 / 1987

الناشر

الإمام الكوثري بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة وكيل كلية الحقوق و أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة

1– منذ أكثر من عام فقد الإسلام إماما من أئمة المسلمين الذي علوا بأنفسهم عن سفساف هذه الحياة، و اتجهوا إلى العلم اتجاه المؤمن لعبادة ربه، ذلك بأنه علم أن العلم عبادة من العبادات يطلب العالم به رضا الله لا رضا أحد سواه، لا يبغي به علوا في الأرض و لا فسادا و لا استطالة بفضل جاه، و لا يريده عرضا من أعراض الدنيا، إنما يبغي به نصرة الحق لإرضاء الحق جل جلاله. ذلكم هو الإمام الكوثري، طيب الله ثراه، و رضي عنه و أرضاه.

لا أعرف أن عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري؛ لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقا و لا سلما لغاية، بل كان هو منتهى الغايات عندهم و أسمى مطارح أنظارهم، فليس وراء علم الدين غاية يتغياها المؤمن، و لا مرتقى يصل إليه عالم.

لقد كان – رضي الله عنه – عالما يتحقق في القول المأثور (العلماء ورثة الأنبياء) و ما كان يرى تلك الوراثة شرفا فقط ليفتخر به ويستطيل على الناس، إنما كان يرى تلك الوراثة جهادا في إعلان الإسلام و بيان حقائقه و إزالة الأوهام التي تلحق جوهره، فيبديه للناس صافيا مشرقا منيرا، فيعشوا الناس إلى نوره و يهتدون بهديه، و أن تلك الوراثة تتقاضى العالم أن يجاهد كما جاهد النبيون و يصبر على البأساء و الضراء كما صبروا، و أن يلقى العنت ممن يدعوهم إلى الحق و الهداية كما لقوا، فليست تلك الوراثة شرفا إلا لمن أخذ في أسبابها و قام بحقها و عرف الواجب فيها، و كذلك كان الإمام الكوثري – رضي الله عنه.

2– إن ذلك الإمام الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهب جديد و لا من الدعاة إلى أمر بدئ لم يسبق به، و لم يكن من الذين يسمهم الناس اليوم بسمة التجديد، بل كان ينفر منهم، فإنه كان متبعا و لم يكن مبتدعا، و لكني مع ذلك أقول: إنه كان من المجددين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد، لأن التجديد ليس هو ما تعارفه الناس اليوم من خلع للربقة و رد لعهد النبوة الأولى، إنما التجديد هو أن يعاد إلى الدين رونقه و يزال عنه ما علق به من أوهام، و يبين للناس صافيا كجوهره نقيا كأصله، و إنه لمن التجديد أن تحيا السنة و تموت البدعة و يقوم بين الناس عمود الدين.

ذلك هو التجديد حقا و صدقا، و لقد الإمام الكوثري بإحياء السنة النبوية فكشف عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كتبها، و بين مناهج رواتها، و أعلن للناس في رسائل دونها و كتب ألفها سنة النبي صلى الله عليه و سلم من أقوال و أفعال و تقريرات، ثم عكف على جهود العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة و رعوها حق رعايتها، فنشر كتبهم التي دونت فيها أعمالهم لإحياء السنة و الدين، قد أشربت النفوس حبه، و القلوب لم ترنق بفساد و العلماء لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة و لم يكونوا في ركاب الملوك.

3– لقد كان الإمام الكوثري عالما حقا، عرف عِلمَه العلماء، و قليل منهم من أدرك جهاده، و لقد عَرَفتُهُ سنين قبل أن ألقاه، عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، و عرفته في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها، و ما كان و الله عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علق عليه، لقد كان المخطوط أحيانا رسالة صغيرة، و لكن تعليقات الإمام عليه تجعل منه كتابا مقروءا، و إن الاستيعاب و الاطلاع و اتساع الأفق، تظهر في التعليق بادية العيان، و كل ذلك مع طلاوة عبارة و لطف إشارة و قوة نقد و إصابة للهدف و استيلاء على التفكير و التعبير، و لا يمكن أن يجول بخاطر القارئ أنه كاتب أعجمي و ليس بعربي مبين.

و لقد كان لفرط تواضعه لا يكتب مع عنوان الكتاب عمله الرسمي الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان، لأنه ما كان يرى – رضي الله عنه – أن شرف العالم يناله من عمله الرسمي، و إنما يناله من عمله العلمي، فكان بعض القارئين – لسلامة المبنى مع دقة المعنى و لإشراق الديباجة و جزالة الأسلوب – لا يجول بخاطره أن الكاتب تركي، بل يعتقد أنه عربي ولد عربيا و عاش عربيا، و لم تظله إلا بيئة عربية.

و لكن لا عجب فإنه كان تركيا في سلالته و في نشأته و في حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الآستانة، أما حياته العلمية فقد كانت عربية خالصة، فما كان يقرأ إلا عربيا و ما ملأ رأسه المشرق إلا النور العربي المحمدي، و لذلك كان لا يكتب إلا كتابة نقية خالية من كل الأساليب الدخيلة في المنهاج العربي، بل كان يختار الفصيح من الاستعمال الذي لم يجر خلاف حول فصاحته، مما يدل على عظم اطلاعه على كتب اللغة متنا و نحوا و بلاغة، ثم هو فوق ذلك يقرض الشعر العربي فيكون منه الحسن.

4– لقد اختص – رضي الله عنه – بمزايا رفعته و جعلته قدوة للعالم المسلم. لقد علا بالعلم عن سوق الاتجار، و أعلم الخافقين أن العالم المسلم وطنه أرض الإسلام، و أنه لا يرضى بالدنية في دينه، و لا يأخذ من يذل الإسلام بهوادة، و لا يجعل لغير الله و الحقِّ عنده إرادة، و أنه لا يصح أن يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق و لا يعلي فيها كلمة الإسلام و إن كانت بلده الذي نشأ فيه و شدا و ترعرع في مغانيه، فإن العالم يحيا بالروح لا بالمادة، و بالحقائق الخالدة لا بالأعراض الزائلة. و حسبه أن يكون وجيها عند الله و في الآخرة و أما جاه الدنيا و أهلها فظل زائل و عرض حائل.

5– و إن نظرة عابرة لحياة ذلك العالم الجليل تُرينا أنه كان العالم المخلص المجاهد الصابر على البأساء و الضراء. و تنقله في البلاد الإسلامية و البلاء بلاء، و نشره النور و المعرفة حيثما حل و أقام. و لقد طوف في الأقاليم

الإسلامية فكان له في كل بلد حل فيه تلاميذ نهلوا من منهله العذب و أشرقت في نفوسهم روحه المخلصة المؤمنة، يقدم العلم صفوا لا يرنقه مراء و لا التواء، يمضي في قول الحق قدما لا يهمه رضي الناس أو سخطوا ما دام الذي بينه و بين الله عامرا.

و يظهر أن ذلك كان في دمه الذي يجري في عروقه، فهو في الجهاد في الحق منذ نشأ، و إن في أسرته لتقوى و قوى نفس و صبر و احتمال للجهاد، إنه من أسرة كانت في القوقاز؛ حيث المنعة و القوة و جمال الجسم و الروح و سلامة الفكر و عمقه.

و لقد انتقل أبوه إلى الآستانة فولد على الهدى و الحق، فدرس العلوم الدينية حتى نال أعلى درجاتها في نحو الثامنة و العشرين من عمره، ثم تدرج في سلم التدريس حتى وصل إلى أقصى درجاته و هو في سن صغيرة، حتى إذا ابتلي بالذين يريدون فصل الدنيا عن الدين لتحكم الدنيا بغير ما أنزل الله، وقف لهم بالمرصاد، و العود أخضر و الآمال متفتحة و مطامح الشباب متحفزة، و لكنه آثر دينه على دنياهم و آثر أن يدافع عن البقايا الإسلامية على أن يكون في عيش ناعم، بل آثر أن يكون في نصب دائم فيه رضا الله، على أن يكون في عيش رافه و فيه رضا الناس و رضا من بيدهم شئون الدنيا، لأن إرضاء الله غاية الإيمان.

6– جاهد الاتحاديين الذين كان بيدهم أمر الدولة لما أرادوا أن يضيقوا مدى الدراسات الدينية و يقصروا زمنها، و قد رأى – رضي الله عنه – في ذلك التقصير نقصا لأطرافها فأعمل الحيلة و دبر و قدر، حتى قضى على رغبتهم و أطال المدة التي رغبوا في تقصيرها ليتمكن طالب علوم الإسلام من الاستيعاب و هضم العلوم و خصوصا بالنسبة لأعجمي يتعلم بلسان عربي مبين.

7– و هو في كل أحواله العالم النزه الأَنِف الذي لا يعتمد على ذي جاه في ارتفاع و لا يتملق ذا جاه لنيل مطلب أو الوصول إلى غاية مهما شرفت، فإنه – رضي الله عنه – كان يرى أن معالي الأمور، لا يوصل إليها إلا طريق سليم و منهاج مستقيم، و لا يمكن أن يصل كريم إلى غاية كريمة إلا من طريق يصون النفس فيها عن الهوان، فإنه لا يوصل إلى شريف إلا شريف مثله، و لا شرف في الاعتماد على ذوي الجاه في الدنيا فإن من يعتمد عليهم لا يكون عند الله وجيها.

8– سعى – رضي الله عنه – بجده و عمله في طريق المعالي حتى صار وكيل مشيخة الإسلام في تركيا، و هو ممن يعرف للمنصب حقه، لذلك لم يفرط في مصلحة إرضاء لذي جاه مهما يكن قويا مسيطرا، و قبل أن يعزل من منصبه في سبيل الاستمساك بالمصلحة. و الاعتزال في سبيل الحق خير من الامتثال للباطل.

9– عزل الشيخ عن وكالة المشيخة الإسلامية، و لكنه بقي في مجلس وكالتها الذي كان رئيسا له، و ما كان يرى غضا لمقامه أن ينزل من الرياسة إلى العضوية ما دام سبب النزول رفيعا، إنه العلو النفسي لا يمنع العامل من أن يعمل رئيسا أو مرؤوسا، فالعزة تستمد من الحق في ذاته و يباركها الحق جل جلاله.

10– و لكن العالم الأبي العف التقي يمتحن أشد امتحان؛ إذ يرى بلده العزيز و هو دار الإسلام الكبرى و مناط عزته و محط آمال المسلمين يسوده الإلحاد، ثم يسيطر عليه من لا يرجو لهذا الدين وقارا، ثم يصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر، ثم يجد هو نفسه مقصودا بالأذى و أنه إن لم ينج ألقي في غيابات السجن و حيل بينه و بين العلم و التعليم.

عندئذ يرى الإمام نفسه بين أمور ثلاثة: إما أن يبقى مأسورا مقيدا ينطفئ علمه في غيابات السجون، و إن ذلك لعزيز على عالم تعود الدرس و الإرشاد، و إخراج كنوز الدين ليعلمها الناس عن بينة، و إما أن يتملق و يداهن و يمالئ، و دون ذلك خرط القتاد بل حز الأعناق، و إما أن يهاجر و بلاد الله واسعة، و تذكر قوله تعالى: [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] (النساء: 97).

11- هاجر إلى مصر ثم انتقل إلى الشام، ثم عاد إلى القاهرة، ثم رجع إلى دمشق مرة ثانية ثم ألقى عصا التسيار نهائيا بالقاهرة، و هو في رحلاته إلى الشام و مقامه في القاهرة كان نورا، و كان مسكنه الذي كان يسكنه ضؤل أو اتسع مدرسة يأوي إليها طلاب العلم الحقيقي لا طلاب العلم المدرسي، فيهتدي أولئك التلاميذ إلى ينابيع المعرفة من الكتب التي كتبت، و سوق العلوم الإسلامية رائجة و نفوس العلماء عامرة بالإسلام، فرد عقول أولئك الباحثين إليها و وجههم نحوها، و هو يفسر المغلق لهم و يفيض بغزير علمه و ثمار فكره.

12- و إن كاتب هذه السطور لم يلق الشيخ إلا قبل وفاته بنحو عامين، و قد كان اللقاء الروحي من قبل ذلك بسنين عندما كنت أقرأ كتاباته و أقرأ تعليقه على ما يُخرج من مخطوط، و أقرأ ما ألف من كتب، و ما كنت أحسب أن لي في نفس ذلك العالم الجليل مثل ما له في نفسي، حتى قرأت كتابه (حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي) فوجدته – رضي الله عنه – خصني عند الكلام في الحيل المنسوبة لأبي يوسف بكلمة خير. و أشهد أني سمعت ثناء من كبراء و علماء فما اعتززت بثناء كما اعتززت بثناء ذلك الشيخ الجليل لأنه وسام علمي ممن يملك إعطاء الوسام العلمي.

سعيت إليه لألقاه، و لكني كنت أجهل مقامه، و إني لأسير في ميدان العتبة الخضراء فوجدت شيخا وجيها وقورا، الشيب ينبثق منه كنور الحق يلبس لباس علماء الترك، قد التف حوله طلبة من سورية، فوقع في نفسي أنه الشيخ الذي

أسعى إليه، فما أن زايل تلاميذه حتى استفسرت من أحدهم: من الشيخ؟ فقال إنه الشيخ الكوثري، فأسرعت حتى التقيت به لأعرف مقامه فقدمت إليه نفسي، فوجدت عنده من الرغبة في اللقاء مثل ما عندي، ثم زرته فعلمت أنه فوق كتبه و فوق بحوثه، و أنه كنز في مصر.

13– و هنا أريد أن أبدي صفحة من تاريخ ذلك الشيخ الإمام لم يعرفها إلا عدد قليل:

لقد أردت أن يعم نفعه و أن يتمكن طلاب العلم من أن يردوا ورده العذب و ينتفعوا من منهله الغزير: لقد اقترح قسم الشريعة على مجلس كلية الحقوق بجامعة القاهرة أن يندب الشيخ الجليل للتدريس في دبلوم الشريعة من أقسام الدراسات العليا بالكلية، و وافق المجلس على الاقتراح بعد أن علم الأعضاء الأجلاء مكان الشيخ من علوم الإسلام و أعماله العلمية الكبيرة.

و ذهبت إلى الشيخ مع الأستاذ رئيس قسم الشريعة إبان ذلك، و لكننا فوجئنا باعتذار الشيخ عن القبول بمرضه و مرض زوجه و ضعف بصره، ثم يصر على الاعتذار، و كلما ألححنا في الرجاء لج في الاعتذار، حتى إذا لم نجد جدوى رجوناه في أن يعاود التفكير في هذه المعاونة العلمية التي نرقبها و نتمناها، ثم عدت إليه منفردا مرة أخرى أكرر الرجاء و ألح فيه و لكنه في هذه المرة كان معي صريحا، قال الشيخ الكريم .. إن هذا مكان علم حقا و لا أريد أن أدرس فيه إلا و أنا قوي ألقي دروسي على الوجه الذي أحب، و إن شيخوختي و ضعف صحتي و صحة زوجي، و هي الوحيدة في هذه الحياة، كل هذا لا يمكنني من أداء الواجب على الوجه الذي أرضاه.

14– خرجت من مجلس الشيخ و أنا أقول أي نفس علوية كانت تسجن في ذلك الجسم الإنساني، إنها نفس الكوثري.

و إن ذلك الرجل الكريم الذي ابتلي بالشدائد فانتصر عليها، ابتلي بفقد الأحبة ففقد أولاده في حياته، و قد اخترمهم الموت واحدا بعد الآخر، و مع كل فقد لوعة و مع كل لوعة ندوب في النفس و أحزان في القلب. و قد استطاع بالعلم أن يصبر و هو يقول مقالة يعقوب [فصبر جميل و الله المستعان] (يوسف: 18)، و لكن شريكته في السراء و الضراء أو شريكته في بأساء هذه الحياة بعد توالي النكبات كانت تحاول الصبر فتتصبر، فكان لها مواسيا و لكلومها مداويا، و هو في نفسه في حاجة إلى دواء.

و لقد مضى إلى ربه صابرا شاكرا حامدا كما يمضي الصديقون الأبرار – فرضي الله عنه و أرضاه.

محمد أبو زهرة

و قد وصف الكوثري بالإمامة 11 مرة، و ترضى عنه 10 مرات، و قال: (إنه كان من المجددين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد).

نظرة عابرة

في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة

بقلم

الإمام الأستاذ / محمد زاهد الكوثري

رحمه الله تعالى

فتوى الشيخ محمد شلتوت في وفاة سيدنا

عيسى عليه الصلاة و السلام، و رفعه و نزوله،

منقولة من كتابه (الفتاوى) ص 52 - 75

رفع عيسى عليه السلام

ورد إلى مشيخة الأزهر الجليلة من حضرة عبد الكريم خان بالقيادة العامة لجيوش الشرق الأوسط سؤال جاء فيه:

هل (عيسى) حي أو ميت في نظر القرآن الكريم و السنة المطهرة؟ و ما حكم المسلم الذي ينكر أنه حي؟ و ما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد إلى الدنيا مرة أخرى؟

و قد حُوِّل هذا السؤال إلينا فأجبنا بالفتوى التالية التي نشرتها مجلة الرسالة في سنتها العاشرة بالعدد 462.

القرآن الكريم و نهاية عيسى:

أما بعد، فإن القرآن الكريم قد عرض لعيسى عليه السلام فيما يتصل بنهاية شأنه مع قومه في ثلاث سور:

1– في سورة آل عمران قوله تعالى: [فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * و مكروا و مكر الله و الله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي و مطهرك من الذين كفروا و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون] 52 – 55.

2– و في سورة النساء قوله تعالى: [و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن و ما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه و كان الله عزيز حكيما] 157 – 158.

3– و في سورة المائدة قوله تعالى: [و إذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني و أمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما

في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي و ربكم و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم و أنت على كل شئ شهيد] 116 – 117.

هذه هي الآيات التي عرض القرآن فيها لنهاية شأن عيسى مع قومه.

و الآية الأخيرة (آية المائدة) تذكر لنا شأنا أخرويا يتعلق بعبادة قومه له و لأمه في الدنيا و قد سأله الله عنها. و هي تقرر على لسان عيسى عليه السلام أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به: [اعبدوا الله ربي و ربكم] و أنه كان شهيدا عليهم مدة إقامته بينهم، و أنه لا يعلم ما حدث منهم بعد أن توفاه الله).

معنى التوفي:

و كلمة (توفى) قد وردت في القرآن كثيرا بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليه المتبادر منها. و لم تستعمل في غير هذا المعنى إلا و بجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر: [قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم][1]، [إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم][2]، [و لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة][3] توفته رسلنا، و منكم من يتوفى، حتى يتوفاهن الموت، توفني مسلما و ألحقني بالصالحين).

و من حق كلمة (توفيتني) في الآية أن تُحمِل هذا المعنى المتبادر و هو الأمانة العادية التي يعرفها الناس، و يدركها من اللفظ و السياق الناطقون بالضاد، و إذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها في تقرير نهاية عيسى مع قومه، لما كان هناك مبرر للقول بأن عيسى حي لم يمت.

---

[1] الآية 11 من سورة السجدة.

[2] الآية 97 من سورة النساء.

[3] الآية 50 من سورة الأنفال.

و لا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناء على زعم من يرى أنه حي في السماء، و أنه سينزل منها آخر الزمان، لآن الآية ظاهرة في تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان و هم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى.

معنى (رفعه الله إليه): و هل هو إلى السماء؟

أما آية النساء فإنها تقول (بل رفعه الله إليه) و قد فسرها بعض المفسرين بل جمهورهم بالرفع إلى السماء، و يقولون: إن الله ألقى على غيره شبهه، و رفعه بجسده إلى السماء، فهو حي فيها و سينزل منها آخر الزمان، فيقتل الخنزير و يكسر الصليب، و يعتمدون في ذلك:

أولا: على روايات تفيد نزول عيسى بعد الدجال، و هي روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها و معانيها اختلافا لا مجال معه للجمع بينهما، و قد نص على ذلك علماء الحديث، و هي فوق ذلك من رواية وهب بن منبه و كعب الأحبار و هما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام و قد عَرَفت درجتهما في الحديث عند علماء الجرح و التعديل.

ثانيا: على حديث مروي عن أبي هريرة اقتصر فيه على الإخبار بنزول عيسى و إذا صح الحديث فهو حديث آحاد، و قد أجمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة و لا يصح الاعتماد عليها في شان المغيبات.

ثالثا: على ما جاء في حديث المعراج من أن محمدا صلى الله عليه و سلم حينما صعد إلى السماء و أخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له و يدخل، رأى عيسى عليه السلام هو و ابن خالته يحيى في السماء الثانية، و يكفينا في توهين هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث في شأن المعراج و في شان اجتماع محمد صلى الله عليه و سلم بالأنبياء، و أنه كان اجتماعا روحيا لا جسمانيا (انظر فتح الباري و زارد المعاد و غيرهما).

و من الطريف أنهم يستدلون على أن معنى الرفع في الآية هو رفع عيسى بجسده إلى السماء بحديث المعراج بينما ترى فريقا منهم يستدل على أن اجتماع محمد بعيسى في المعراج كان اجتماعا جسديا بقوله تعالى: [بل رفعه الله إليه] و هكذا يتخذون الآية دليلا على ما يفهمونه من الحديث حين يكونون في تفسير الحديث، و يتخذون الحديث دليلا على ما يفهمونه من الآية حين يكونون في تفسير الآية.

الرفع في آية آل عمران:

و نحن إذا رجعنا إلى قوله تعالى: [إني متوفيك و رافعك إلي] في آيات آل عمران مع قوله [بل رفعه الله إليه] في آيات النساء وجدنا الثانية إخبارا عن تحقيق الوعد الذي تضمنته الأولى، و قد كان هذا الوعد بالتوفية الرفع و التطهير من الذين كفروا، فإذا كانت الآية الثانية قد جاءت خالية من التوفية و التطهير، و اقتصرت على ذكر الرفع إلى الله، فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر في الأولى جمعا بين الآيتين.

و المعنى أن الله توفى عيسى و رفعه إليه و طهره من الذين كفروا.

و قد فسر الألوسي قوله تعالى [إني متوفيك] بوجوه منها – و هو أظهرها – إني مستوفي أجلك و مميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، و هو كناية عن عصمته من الأعداء و ما هم بصدده من الفتك به عليه السلام، لأنه يلزم من استيفاء الله أجله و موته حتف أنفه ذلك.

و ظاهر أن الرفع الذي يكون بعد التوفية هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصا و قد جاء بجانبه قوله: [و مطهرك من الذين كفروا] مما يدل على أن الأمر أمر تشريف و تكريم.

و قد جاء الرفع في القرآن كثيرا بهذا المعنى: [في بيوت أذن الله أن ترفع. نرفع درجات من نشاء. و رفعنا لك ذكرك. و رفعناه مكانا عليا. يرفع الله الذين آمنوا] الخ ....

و إذن فالتعبير بقوله [و رافعك إلي] و قوله [بل رفعه الله إليه] كالتعبير في قولهم لحق فلان بالرفيق الأعلى و في [إن الله معنا] و في [عند مليك مقتدر]، و كلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية و الحفظ و الدخول في الكنف المقدس، فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه)؟

اللهم إن هذا ظلم للتعبير القرآني الواضح خضوعا لقصص و روايات لم يقم بها على الظن بها – فضلا عن اليقين – برهان و لا شبه برهان!

الفهم المتبادر من الآيات:

و بعد فما عيسى إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. ناصبه قومه العداء. و ظهرت على وجوههم بوادر الشر بالنسبة إليه، فالتجأ إلى الله شأن الأنبياء و المرسلين فأنقذه الله بعزته و حكمته و خيب مكر أعدائه. و هذا هو ما تضمنته الآيات [فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله] إلى آخرها، بين الله فيها قوة مكره بالنسبة إلى مكرهم، و أن مكرهم في اغتيال عيسى قد ضاع أمام مكر الله في حفظه و عصمته، إذا قال [يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي و مطهرك من الذين كفروا] فهو يبشره بإنجائه من مكرهم و رد كيدهم في نحورهم و أنه سيستوفي أجله حتى يموت حتف أنفه من غير قتل و لا صلب، ثم يرفعه الله إليه.

و هذا هو ما يفهمه القارئ للآيات الواردة في شأن نهاية عيسى مع قومه متى وقف على سنة الله مع أنبيائه حين يتألب عليهم خصومهم، و متى خلا ذهنه من تلك الروايات التي لا ينبغي أن تحكم في القرآن، و لست أدري كيف يكون إنقاذ عيسى بطريق انتزاعه من بينهم و رفعه بجسده إلى السماء مكرا؟ و كيف يوصف بأنه خير من مكرهم مع أنه شئ ليس في استطاعتهم أن يقاوموه، شئ ليس في قدرة البشر,

ألا إنه لا يتحقق مكر في مقابلة مكر إلا إذا كان جاريا على أسلوبه، عير خارج على مقتضى العادة فيه، و قد جاء مثل هذا في شأن محمد صلى الله عليه و سلم [و إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين].

رفع عيسى ليس عقيدة يكفر منكرها:

و الخلاصة من هذا البحث:

1– أنه ليس في القرآن الكريم و لا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليه القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء و أنه حي إلى الآن فيها و أنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

2– أن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله و رافعه إليه و عاصمه من الذين كفروا، و أن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه و لم يصلبوه و لكن وفاه الله أجله و رفعه إليه.

3– أن من أنكر ان عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء و أنه فيها حي إلى الآن و أنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكرا لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه و إيمانه و لا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين يصلى عليه كما يصلى على المؤمنين و يدفن في مقابر المؤمنين، و لا شية في إيمانه عند الله و الله بعباده خبير بصير.

مناقشة

بعد نشر هذه الفتوى في مجلة (الرسالة) السنة العاشرة العدد 462 قامت ضجة أحدثها قوم جمدوا على القديم، و ادعوا الغيرة على الدين.

و قد رددنا على شبهات هؤلاء بالحجج العلمية الدامغة و نشرت ذلك (الرسالة) في الأعداد 514، 516، 517، 518، 519 من السنة الحادية عشرة.

و فيما يلي خلاصة لهذا الرد:-

مبادئ مسلمة عند العلماء:

1- حدد الشرع العقائد، و طلب من الناس الإيمان بها، و الإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل.

و من الواضح أن هذا الاعتقاد لا يحصله كل ما يسمى دليلا، و إنما يحصله الدليل القطعي الذي لا تعتريه شبهة.

2- و هذا الدليل القطعي يتمثل في شيئين:-

الأول: الدليل العقلي الذي سلمت مقدماته، و انتهت في أحكامها إلى الحس و الضرورة، فهذا – باتفاق – يفيد اليقين، و يحقق ذلك الإيمان المطلوب.

الثاني: الدليل النقلي إذا كان قطعيا في وروده، قطعيا في دلالته.

و معنى كونه قطعيا في وروده: ألا يكون هناك شبهة في ثبوته عن الرسول، و ذلك كالقرآن الكريم الذي ثبت كله بالتواتر القطعي، و كالأحاديث المتواترة عن الرسول – إن ثبت تواترها.

و معنى كونه قطعيا في دلالته، أن يكون نصا محكما في معناه، و ذلك إنما يكون فيما لا يحتمل التأويل.

3- فإذا كان الدليل النقلي بهذه المثابة أفاد اليقين. و صلح لأن تثبت به العقيدة.